

الفصل الثامن

الاتجاهات الرمزية والتصويرية في شعر إليوت

« الناس يفتنون ويمرحون ، لكن سكرة الموت قابضة أمامهم . »
إليوت : « الرباعيات الأربع »

لقد ظهر ولع إليوت بالشعر منذ حداثةه وكانت أول قصيدة أعجب بها هي رباعيات عمرين الخيام التي ألمّ بها وهو في الرابعة عشر من عمره ، وتبع ذلك قراءته للشعراء الميتافيزيقيين الذين ظهروا في القرن السابع عشر في إنجلترا ثم شعراء الرمزية في القرن التاسع عشر في فرنسا . وما جذب انتباهه إلى الحركة الرمزية في فرنسا ظهور كتاب عن « الحركة الرمزية في الأدب » لمؤلفه آرثر سيمونز وذلك حينما أعيد طبعه سنة ١٩٠٨ (فلقد ظهر أولاً سنة ١٨٩٩) . وقد قرأه إليوت وألمّ بتفاصيله . وحين تولى تحرير مجلة (الكريتيرون) كتب في عددها الصادر في يناير سنة ١٩٣٠ يقول في هذا الصدد :

« إنني مدين لمستر سيمونز بالشيء الكثير . فلولا قراءة كتابه لما سمعت عن "لافورج" و "ريمبو" سنة ١٩٠٨ ؛ ومن المحتمل ألا أكون قد بدأت بعد في قراءة فيرلان ، ولولا قراءتي لفيرلان لما سمعت قط عن كوربيير . ولهذا فكتاب سيمونز هو أحد تلك الكتب التي أثرت في مجرى حياتي » (١) .
لعلنا نلمح آثار هذه الحركة الفرنسية في الأشعار الأولى لإليوت وبخاصة

(١) "I owe Mr. Symons a great debt. But for having read his book I should not, in the year 1908, have heard of Laforgue and Rimbaud; I should probably not have begun to read Verlaine; and but for reading Verlaine, I should not have heard of Corbière. So the Symons book is one of those which have affected the course of my life".

T.S. Eliot, "A Review of 'Hautelaire and the Symbolists' by Peter Quennell," *The Critique*, January 1930, p. 357.

في القصائد التي ظهرت على صفحات المجلة الأدبية بجامعة هارفارد التي لم تنشر بعد في أى ديوان له ، إذ يقول في قصيدته التي أطلق عليها اسم « الضغينة » .

« ما هي الحياة بحقارتها وشوائبها القليلة
بفتورها وتأنقها ومرادتها ،
تنتظر (كلاً منا) » (١) .

فلقد كتب شعراء الرمزية في فرنسا من قبل عن سأم الحياة وما أطلقوا عليه اسم « تراجيديا الوجود » ، وأفاضوا في تبيان مظاهر الضيق النفسى ، والفتور الذى يتباين بين الفينة والأخرى ، ثم كل ما من شأنه تكبير صفو البشر من عقد مكبوتة ، ونوايا شريرة ، وآلام مريرة .

وهناك حركة أدبية أخرى تأثر بها لاليوت وإن كان أثرها مقصوراً على مسهل حياته الشعرية وهى الحركة التصويرية (٢) التى وضع أساسها الفيلسوف والشاعر الناقد ت . ل . هيوم (٣) الذى التقى بغيره من الكتاب والشعراء فى نادى الشعر فى حى (سوهو) بلندن مساء كل يوم أربعاء . وهناك تبادل معهم الآراء بعد الاستماع لقراءة الشعر . وفى الخامس والعشرين من مارس سنة ١٩٠٩ كوّن هيوم جماعة من الشعراء تضم فلنت (٤) وجوزيف كامبيل (٥) ومس فلورنس فار (٦) . وفى الثانى والعشرين من إبريل فى نفس السنة انضم إليهم الشاعر الأمريكى ليزرا باوند (٧) ، وفى عيد الميلاد سنة ١٩٠٩ أصدروا كتاباً يضم بعض القصائد لؤلؤء الشعراء الذين أطلق عليهم باوند اسم التصويريين . ونظراً للصلة الوثيقة التى توصلت

“And life, a little bald and gray,
Languid, fastidious, and bland,
Waits.”

(١)

T.S. Eliot, “Spleen”, *Harvard Advocate*, a photostatic copy from the Library of Harvard University, January 26, 1910, p. 114.

The Imagist Movement.

(٢)

T.E. Hulme.

(٣)

Flint.

(٤)

Joseph Campbell.

(٥)

Miss Florence Farr.

(٦)

Ezra Pound.

(٧)

أواصرها بين باوند وإليوت في هذه الفترة فقد عرف الأخير الشيء الكثير عن هذه الحركة الأدبية التي تمخضت عن الإيمان الشديد بأهمية « التكنيك » في الشعر وكذلك الإيقاع الموسيقي الذي يعبر عن مناطق الوجدان والاهتمام أيضاً بالوزن والنسق والبعدهن المصطلحات المتواردة التي تلوكتها الألسن في كل مناسبة . لكن إليوت سرعان ما ضاق ذرعاً بهذه الحركة الأخيرة ، فتركها إلى غير رجعة ، إذ أنها وقفت حائلاً بينه وبين شغفه بالتعبير الحر عن الصورة الشعرية «البانورامية» التي تعكس في ثنايا مكوناتها عناصر جوهرية عن حقيقتي الحياة والموت ومستويات الرؤيا والشفافية النفسية . ولعلنا نلاحظ ذلك في القصائد المشهورة التالية .

* * *

أغنية الحب لألفريد بروفروك^(١)

ليست هذه أغنية بالمعنى المتعارف عليه إذ هي بالأحرى خواطر تجول في ذهن بروفروك صاحب الشخصية التراجيدية ، فهو متألم غاية الألم لعجزه عن تحقيق رغباته وطموحه ومثله العليا . إنه رجل متردد إلى أبعد حد ، كما يتضح لنا في سياق القصيدة ، إذ يقول :

« دعنا نغشى إذن . سوياً

حينما تنتشر ظلمة الليل تحت صفحة السماء ،

كمريض مخدّر قد استلقى على منضدة العمليات »^(٢) .

وقد يتبادر إلى أذهاننا لأول وهلة أن هذا الحوار قائم بين شخصيتين مختلفتين ، إنه في الحقيقة حوار بين الأنا^(٣) والهي^(٤) لتنفس الشخص (وهو بروفروك) ،

"The Love Song of J. Alfred Prufrock".

(١) يحده القارئ نصراً أخرى مترجمة من هذه القصيدة والقصائد التالية تحت عنوان « نصوص مختارة من مؤلفات إليوت » في الجزء الأخير من هذا الكتاب .

(٢) "Let us go then, you and I,

When the evening is spread out against the sky

Like a patient etherised upon a table."

T.S. Eliot, *Collected Poems* : 1909-1935. London. 1958, p. 11.

The Ego.

The Id.

(٣)

(٤)

أو بين الشعور واللاشعور ، أو بين العقل الواعي المفكر وبين الذات الدفينة المحتبئة في بواطن النفس غير الواعية حيث الرغبات المكبوتة والدوافع الحبسية . إنه عاجز عن تحقيق أية رغبة من رغباته ، وبروفروك يعوزه الإقدام . إنه يريد أن يدخل الحانة حيث النساء والخمر ، لكنه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، فهو مصاب بداء التردد ، كما تنقصه الشجاعة والقدرة على حل مشاكله العاطفية . إنه يميل إلى الانزواء داخل الطرقات الخاوية ، يسترق السمع لعله يجد صدًى لمشكلته عند الآخرين . وهو يحاول جاهداً أن يعلل هذه الأمور كلها وبخاصة تردده المقيت فيختلق الأسباب إلى أن تمر بنفسه موجة من الترويض بعد طول الانتظار فيقول : « لا تسأل ماهو ؟ » إذ لا داعى إلى هذا السؤال ، فالخطوة الأمامية التي يخطوها نحو الحانة هي التي تهمننا الآن .

والنتيجة الحتمية لهذه الحالة النفسية أن يترك بروفروك رغماً عنه عالم الواقع ليعيش في عالم الوم والخيال ، مختلفاً الأعذار الواهية ، إذ يقول :

« أفهل أجزئ

أن أعكر صفو الكون ؟ ^(١) »

ثم يطمئن نفسه بهذه الكلمات :

« لقد عرفت الناس جميعاً ، عرفتهم كلهم —

كما عرفت الأمسيات وأوقات الصباح وبعد الظهر ،

ونضب معين حياتي بملاعتي القهوة ؛

إنني أعرف هذه الأصوات التي سرعان ما تتلاشى

“Do I dare
Disturb the universe ?”
Ibid., p. 12.

(١)

“For I have known them all already, known them all-
Have known the evenings, mornings, afternoons,
I have measured out my life with coffee spoons;
I know the voices dying with a dying fall.

(٢)

أمام أنغام الموسيقى المنبعثة من الحجرة البعيدة .
فكيف أعارد الكرة إذن؟ (٢) »

لقد فشل بروفروك في حبه فسم الحياة الدنيا التي أضحت بالنسبة له مجموعة من أقداح القهوة التي تحتسى وبمجموعة أخرى من الأصوات الخافتة . لقد كان بوده أن يدخل الحانة ويرتج في غرام إحدى السيدات اللواتي يترددن عليها ، ولكنه كالمرضى الذي أشار إليه إلبوت في مستهل هذه القصيدة غير قادر على الحركة . ترى

« هل لى بعد كل ذلك أن أرى قيمة فعلتى هذه ،

وما جدوى بذل الجهد فى سبيلها ،

بعد غروب الشمس وأفنية المنازل والطرقات المبللة ،

بعد قراءة القصص وتناول أقداح الشاي وظهور الجونلات

التي تجر أذيالها النساء على الأرض الخشبية -

كل هذا ، بل وأكثر منه أيضاً ؟

من العسير أن أفصح عما أعنيه بالضبط ! » (١)

بعد هذه الذكريات التي تمتد به إلى الماضي البعيد يفرق بروفروك في بحر من التأملات ، فيتصور أنه الأمير هاملت ، ثم يعدل عن هذه الفكرة ويفضل أن يكون بولونيوس نديم الملك (فى مسرحية « هاملت » لشكسبير) ، ذلك أن هاملت متردد مثله ، أما بولونيوس فإنه يسدى النصيح والإرشاد لغيره ، وهذا هو ما يحتاج

Beneath the music from a farther room.

So how should I presume ?"

Ibid., p. 13.

"And would it have been worth it, after all,

(١)

Would it have been worth while,

After the sunsets and the dooryards and the sprinkled streets,

After the novels, after the teacups, after the skirts

that trail along the floor.

And this, and so much more ?

It is impossible to say just what I mean !"

Ibid., p. 14.

إليه بروفروك . وهكذا يستطرد بروفروك في تأملاته داخل هذا الإطار من المنولوج الداخلي^(١) إلى أن يصل إلى الحقيقة المرة . وهي أن هذه الأفكار التي هي بالأحرى هواجس ، تجره وراءها إلى عالم الأحلام . فلم تحقق له أى شيء من مأربه . فهي تقدم له ماوى مؤقتاً ينجس فيه بعيداً عن أعين الناس وعالم الواقع بصخبه وضجيجيه . فتجده يهرع إليه بكلياته ، حتى إذا ما تبين ضعفه . عاد القهقري لا إلى العالم الرحب الفسيح الذى يتسم بالعلاقات الاجتماعية الناضجة ، بل إلى عالم اللاشعور حيث الكبت والعقد النفسية . وهكذا يقف بروفروك في حيرة بالغة فينتابه شعور بالنقص :

« أفهل أطرح شعري إلى الخلف ؟ هل لي أن أتناول نخوخة ؟

سأرتدى بنظولناً من القانلة البيضاء وأسير على الشاطئ .

لقد سمعت حوريات البحر وهن يناجين الواحدة منهن الأخرى .

لا أخالهن سيناجيننى أيضاً »^(٢) .

وهكذا يختلط شعوره بالنقص بأحلام يقظته وبفشله الذريع أمام إيجاد أى توافق بين الحقيقة والخيال ، وبين الرغبة والعمل على تحقيقها ، فيزداد ألمه ولوعته وبخاصة حينما يتبين له ذلك التناقض المرير بين حالته المخزية وعرائس البحر في مناجاتهن وغنائهن ومرجهن . فتجده يسرع في هروبه إلى عالم الفانتازيا الأول ليعاود الكرة عله يستريح نفسياً ولو لبرهة يسيرة . وبعد أن أيقن هذه المرة من خجله الشديد الذى وصل به إلى حد الجبن ، تمنى لنفسه الموت . فهو السبيل الوحيد أمامه الآن للدفن مشاكله النفسية والعاطفية .

• • •

Interior monologue.

"Shall I part my hair behind ? Do I dare to eat a peach ?

I shall wear white flannel trousers, and walk upon the beach.

I have heard the mermaids singing, each to each.

I do not think that they will sing to me."

Ibid., p. 15.

(١)

(٢)

صورة سيده (١)

أما في القصيدة التالية التي أطلق عليها إليوت اسم « صورة سيده » نجد الموقف قد تغير ، فإذا بنا نقف أمام سيده مسنة تحاول أن تكسب ود شاب يافع ، وهو محجم عنها يود أن يتخلص من حبها له . إنها عانس قد تخطت سن الزواج ووجدت في هذا الشاب فرصة أخيرة لإلقاء شباكها عليها تفلح ، لكنه لم يعرفها التفاتاً ، فتحاول أن تجذبه بشئ الطرق والرسائل .

وعلة هذه المعرفة بين الشاب والسيده المسنة : تلك المعرفة التي لم تصل بعد إلى منزلة الصداقة الكاملة ، أن هناك بون شاسع في الميول والاتجاهات بالإضافة إلى فارق السن . فلقد تلتاقا أولاً في الردهة ثم دخلا غرفة استقبالنا التي أضاءتها أربعة من الشموع :

« فيين اللخان والضباب بعد ظهيرة يوم من أيام ديسمبر
تجد الموقف وكأنه معد لك — أو كأنه يبدو كذلك —

والسيده تقول ” لقد حجزت هذه الأمسية لك “ ؛

الحجرة المعتمة تضيئها أربعة شموع

تعكس على السقف فوق رؤوسنا أربعة دوائر مضيئة ؛

يا له من جو شبيه بقبر جوليت « (٢) .

فالجو المحيط بهما خافت ، والسماء ملبدة بالغيوم : والحجرة معتمة . وإن كان المنظر كله يوحى بالشاعرية نظراً لوجود الشموع والزهور ، إلا أنها شاعرية

“Portrait of a Lady”.

“Among the smoke and fog of a December afternoon
You have the scene arrange itself — as it will seem to do —
With ‘I have saved this afternoon for you’;
And four wax candles in the darkened room,
Four rings of light upon the ceiling overhead,
An atmosphere of Juliet’s tomb.
Ibid., “Portrait of a Lady,” p. 16.

(١)
(٢)

مفتعلة ، فكونات المنظر في مجموعه غير متجانسة ، مع أن البيوت أراد أن يخلق جوًّا مسرحياً في مستهل هذه القصيدة . فالحوار غير مكتمل لأنه قائم في مخيلة السيدة أى أنه من جانب واحد . أما الشاب فقد قام بالتحليل السيكولوجى ثم التعليق على الموقف في اقتضاب ، ولكنه في كل ذلك لم يتمكن من اتخاذ رأى حاسم تجاه السيدة لأنه لا يريد أن يكدر صفرها في الوقت الذى ينوى فيه جداً أن يتخلص منها .

إنها تحلثه عن مرسى شوبان عليه يبدى رغبة في الاستماع إليها ، لكنه سرعان ما يضيى بصوتها الأجنس ، فيقول :

« دعينا نستنشق عبير الهواء خلال نشوة هذا التبغ

دعينا نشيد بهذه الآثار

ونتناقش حول الأحداث الأخيرة

ونضبط ساعاتنا وفق الساعات العامة

ثم نجلس نصف ساعة لتتناول شرابنا » (١) .

وبالرغم من توسلاتها له فإنه لم يدعن لها ، ولم يبد أى استعداد للشفقة عليها ، فهو مؤمن في قرارة نفسه بصلاية رأيه ، قد يمنح أحياناً إلى التيه والكبرياء ، وهى صاغرة لأوامره . ورهن إشارته ، وطوع بنانه . والمشكلة في نظره الآن آخذة في التبلور تدريجاً ، فهو يرد أن يقطع علاقته بها نهائياً ، ولكن كيف السبيل ؟ إنه يوهمها بأنه سيقوم برحلة طويلة في ربوع أوروبا ، وهى لا تعرف شيئاً عن مصير الصلة التى بينهما ، فتردد هذه الألفاظ في حشجة خافتة مريرة :

“Let us take the air, in a tobacco trance,
Admire the monuments,
Discuss the late events,
Correct our watches by the public clocks.
Then sit for half an hour and drink our bocks”.
Ibid., p. 17.

(١)

« ففي ليلة من ليالى أكتوبر الحالكة عدت إلى منزلى كعادتي
وقد انتابني إحساس بوعكة طفيفة
وصعدت درج السلم وأدرت مقبض الباب
وشعرت في الحال كأنني صعدت على ركبتي وبدأي .
« أفهل سترحل إلى الخارج ، ولكن متى ستعود ؟
إنه لسؤال عديم الجدوى .
فأنت لا تعرف وقت عودتك ،

على أية حال ستتعلم الكثير من ترحالك » .
وأنا هنا أتى بابتسامتي المتناقلة على هذه القطع الأثرية (١) » .
وهكذا هدأت العاصفة بعض الشيء وبخاصة بعد أن وعدتها بأنه سيكتب
لها كلمة أثناء رحلته . ثم يتركها ويمضى إلى حال سبيله ، فتنفصم عرى هذه
المعرفة التي لم تتوطلد بعد ، ويشعر الشاب بعد ذلك بأنه حر طليق ، وتطوف
بخطره فكرة عارضة لا تلبث أن تسيطر عليه ، فقد تموت هذه السيدة لتقدمها
في السن :

« حسناً ! وما عساها أن تعاجلها المنية بعد الظهيرة
في يوم حالك مليء بالدخان ، وأمسية وردية تميل إلى الاصفرار ؛
تموت ثم تتركني جالماً وقد أمسكت بقلمى
والدخان ينحدر رويداً من أسطح المنازل ؛

(١) "The October night comes down; returning as before
Except for a slight sensation of being ill at ease
I mount the stairs and turn the handle of the door
And feel as if I had mounted on my hands and knees.
'And so you are going abroad; and when do you return ?
But that's a useless question.
You hardly know when you are coming back,
You will find so much to learn.'
My smile falls heavily among the bric-à-brac."
Ibid., p. 19.

وقد انتابني الشك ، فلم أعرف
 ما عسى أن أحس به أو ما بالى قد فهمته
 ريثما كنت حكيماً أم أحمقاً ، مثيراً أم مهوراً . . .
 أليست النصرة حليفها بعد كل ذلك ؟
 لقد أفلحت هذه الثبرات الموسيقية لأنها تم عن حزن
 ولأننا الآن نتحدث عن الموت -
 ترى هل يحق لى أن أبتسم ؟ (١)

وإلى هذا الحد الذى تنهى عنده القصيدة نجد أن الشاب قد ارتضى لنفسه
 هذه الخاتمة كما ارتضى لصاحبته تلك الفاجعة بعد أن ارتسمها فى مخيلته . وهكذا
 سلبته هذه السيدة القدرة على الابتسامة لأنها أفلحت فى خلق جو بائس حوله ، ولهذا
 كانت للثبرات الموسيقية الحزينة وقع أليم فى نفسه . كما أن قراره الذى اتخذه
 إزاءها : ترى هل كان حكيماً أو أحمقاً ، مثيراً أو مهوراً فى ذلك ؟ إنها قد
 نجحت فى خلق تلك الحيرة التى خلقها له ، فلم يهنأ ببحرته التى كان ينشدها
 بعد فراقه لها ، ولم يستمتع بذلك الأمل المعقود حول رحاته الطويلة فى ربوع
 أوربا .

"Well I and what if she should die some afternoon,
 Afternoon grey and smoky, evening yellow and rose;
 Should die and leave me sitting pen in hand
 With the smoke coming down above the housetops;
 Doubtful, for a while
 Not knowing what to feel or if I understand
 Or whether wise or foolish, tardy or too soon . .
 Would she not have the advantage, after all ?
 This music is successful with a 'dying fall'
 Now that we talk of dying -
 And should I have the right to smile ?"
 Ibid., p. 20.

(١)